منصف المرزوقي... هذا الكتاب

معن البياري

هناك، على علوّ في جدار في غرفة الضيافة في منزله في سوسة، صورة للروائي الروسي، دوستويفسكي، علّقها منصف المرزوقي (1945)، إعجابا بأكثر كاتبٍ تأثّر به، والذي كانت إصابته بالصرع، كما معظم أبطال رواياته، والإدمان (مفردتُه بالضبط) المبكّر على قراءة هذه الروايات، سببين لاختيار رئيس تونس الأسبق دراسة طب الأعصاب في فرنسا، وتخصّص به، وكان موضوعه في رسالة الدكتوراة «التجارب الطبية على البشر في المرحلة النازية». في شبابه ذاك، في عامه السابع والعشرين، يصادف المرزوقي إعلانا عن مسابقة عالمية للكتابة عن غاندي، فيشارك فيها، ثم يفوز بالجائزة، فيُدعى إلى الهند، ويُستضاف فيها شهراً. وهو الذي يقول إن الزعيم الهندي وفيلسوف اللاعنف وسجين نظام الفصل العنصري الأشهر رئيس جنوب أفريقيا تاليا، نيلسون مانديلا، كان تأثيرُهما فيه من مصادر تفكيره. وهو اليساري النزوع منذ يواكبر نضاله، إبّان كان طالبا في فرنسا، منتظما في أنشطة الدفاع عن القضية الفلسطينية، وراودته في تلك الغضون أن ينتسب إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقد صار تاليا مقرّبا من زعيمها المؤسّس جورج حبش.

تلك مقاطع شديدة الإيجاز في سيرة الرئيس التونسي الأسبق، منصف المرزوقي، الذي أقدم محامون (!)، أخيرا، على تسجيل قضيةٍ ضده في محكمة تونسية، بغرض إدانته بتهم شنيعة، يودي بعضها إلى الإعدام، في غضون الاحتدام والانقسام السياسيين الحادّين في تونس، بسبب ما يرتكبه الرئيس قيس سعيّد من قرارات، يستولي فيها على عموم السلطة، تقف على تلك المقاطع، وغيرها كثير مما هو شائق وشديد المؤانسة والإمتاع، في قراءتك كتاب «منصف المرزوقي، حياته وفكره .. حوار. سيرة»، والذي يشتمل على حوار مطوّل مع المرزوقي أنجزه المغربيان معطي منجب (السجين حاليا في بلده) وعبد اللطيف الحماموشي (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2021). يسعفك هذا الكتاب في معرفة مختلف التأثيرات والمؤثرات التي ساهمت في تشكيل الوعي السياسي والاجتماعي الذي يقيم عليه المرزوقي، وما يمكن اعتبارها تحولات أو انعطافات فكرية عبر فيها وراجعها في مساره الثقافي، وهو الذي ظل مرابطا في منطقة اليسار الاجتماعي، المناهض للظلم والاستبداد، اليسار الذي يتحفّف فيه المرزوقي، بعد مراجعات واحتكاكات واختبارات في وقائع العالم، من التركيز على الأيديولوجيا إلى التحديق في واقع الفقر والجهل وأحوال المجتمعات، وذلك بعد أن تعرف في فرنسا، لما كان طالبا وأستاذا وناشطا، على جوهر فكرة حقوق الإنسان، وهو الذي ترأس رابطة للدفاع عنها في بلده، وكان من مؤسسيها، فاصطدم مع سلطة زين العابدين بن علي الذي التقى به ثلاث مرّات، فحبسه الأخير، فأمضى أربعة شهور في زنزانة انفرادية، قبل أن يتم الإفراج عنه استجابة لضغوط دولية كثيرة في يوليو/ تموز 1994، وكانت تلك التجربة واحدة من آكلاف غير قليلة (منعه من السفر مرات عديدة، محاولتا اغتيال، ...) دفعها المرزوقي، في غضون نشاطه الذي لم يتوقف يوما عن الانتصار لحقوق المواطن التونسي في العمل والحرية والكرامة.

يتوفر الكتاب الذي تتكثف هذه السطور لتثمين قيمته على تفاصيل مثيرة ومهمة في هذا كله، وأيضا بشأن تجربة الحكم رئيسا في قصر قرطاج أزيد من ثلاث سنوات، والتي يقول صاحبنا إن المؤكّد أن مكتبه في القصر الجمهوري كان، في أثنائها، «ملغما» بأجهزة التنصت، وإن المكالمات التي كان يجريها كانت تحت المراقبة. ويقول ما هو كثير الأهمية والدلالة عن الشراكة الصعبة مع حركة النهضة في الحكم، وعن محاولات القيادي فيها، رئيس الحكومة، حمادي الجبالي، تهميش الرئيس والاستحواذ على صلاحياته، ذلك أن «مفهوم الشراكة لم يكن راسخا لدى الإسلاميين».

كل إيجاز مخلّ، وإيجاز كتاب ثري بالتفاصيل والإحالات والشهادات، فيه الشخصي والعام، الفكر والسياسة، الثقافة والخبرة، عملية صعبة.. الأولى قراءة هذا الكتاب.

صناعة القامات

معدوح حمادة

اتصل بي يريد مناقشة مشروع مشترك في الميديا كما يحب تسميتها، وأكد أن المشروع سيدرّ علينا ربحا وفيرا، ولأن هذا لم يكن المشروع الأول الذي يطرحه صديقي هذا علي، لم أعوّل على كلامه، لا في ما يخص مشروع الميديا، ولا في ما يخص الأرباح التي يطمرنا في كل حديث يتحفنا به، ولكنني، في كل الأحوال، كنت سأذهب إلى المقهى من أجل تغيير الجو قليلا. وجدته ينتظرني قرب المقهى تحت إبطه مصفّف بلاستيكي أزرق، مغلق بمطّاطة، وكان شكله يبدو منفّرا في الجاكيت سكرية اللون، المقطّعة إلى مربعاتٍ، والتي كان يرتديها فوق بنطال بني، حدّ الخطى نحوي مصافحا وقال معتذرا:

انتظرتك هنا لكي لا تدخل إلى المقهى فلا تجدني، لأن عندي عملا صغيرا في التلفزيون.

لا مشكلة قم بعملك وعد. أنا أنتظر في القهوة. .. قلت له فقال:

لا .. لا، نذهب إلى التلفزيون معا، من جهة أنا أتشجع، ومن جهة أخرى أنت قد تستفيد بمشروع ما مع التلفزيون، فإذا ارتبط اسمك بتلفزيون أجنبي سترتفع أسهمك عندنا في البلد، سواء في مجال الميديا أو على صعيد الجمهور. سيقولون عنك «لا نبي في وطنه» أو «مزمار الحي لا يُطرب». فهقه بشكل يدلّ على أنه أعجب بما قاله، ثم استرسل في حديثٍ دقيقٍ عن أهمية تضليل الرأي العام في صناعة القامات الوطنية. وعلى الرغم من أنني أكره فلسفته هذه، فقد تحمّلت تحت الضغط والتوسل الذي لم أدرك سببه منه، تمكّن من جعلي أذهب معه، وفي مكتب مدير التلفزيون، كما يفعل جميع الفنّانين، كان صديقي هذا قد جهز الأجواء، مسبقا، فاستُقبل استقبال كبار رجال الأعمال، حيث رحب بنا المدير الذي كان بدوره يعوّل على صديقي في مشروع ما على ما يبدو، فدعانا إلى مكتبه لاحتساء فناجين القهوة، وقدّم لنا مشروبا ساخنا وهديتين تذكاريتين، مفكّرتان عليهما اسم التلفزيون، تحتويان في قلبيهما على قلمين كتب عليهما اسم التلفزيون أيضا. ثم افتتح صديقي الحديث في الموضوع، فأشار إليّ معرّفا أكثر، وقال من دون أن تهتزّ شعرة في بدنه:

صديقي فلان حاصل على أربع عشرة جائزة عالمية في الأدب والدراما. ..

لم أعرف لماذا ذكر أحدا لماذا اختار صديقي الفنّاص الرقم أربع عشرة، ولكنني حينها كدت أقفز من مكاني، وأولّي الأدبار، قبل أن يسألني مدير التلفزيون عن تلك الجوائز، ولكن ذلك، لحسن حظي، لم يحدُث. .. استمرّ الحديث بطريقةٍ يخال فيها المستمع صديقي الفنّاص كما لو أنه إمبراطور الصحافة، روبرت مردوخ. بعد ذلك، ودّعنا مدير التلفزيون إلى باب مكتبه وانصرفنا، ثم كان أول ما فعلته أنني صرخت في وجهه: كيف تخرط هذه الخرطة؟ افترض، يا أخي، أنه سألني عن تلك الجوائز التي حصلت عليها، من أين سأستحضر له أسماء أربع عشرة جائزة؟ .. فابتسم صديقي الفنّاص بثقة، وقال: .وهل كنت ستركك تردّ لو أنه سألك؟ كنت ستأجيبه، أعرف أنك سترتبك وتفضحنا..

ختم الحديث بضحكة طحلبية، وودّعته على أمل ألا تجمعني المصادفات به مرة أخرى.. بعد ستة أشهر تقريبا، رن جرس هاتفي، فألقى عليّ التحية من سماعته شخصٌ عرّف عن نفسه بأنه مسؤول العلاقات العامة في التلفزيون، وأخبرني أنه حصل على هاتفي من صديقي الفنّاص، ودعاني إلى المشاركة في ندوة تلفزيونيةٍ رشّحني إليها مدير التلفزيون. كان ذلك من دواعي سروري بطبيعة الحال.

في الندوة التي كنت أجلس خلف منصّتها، عرّف عني المقدّم بمعلوماتٍ كان يقرؤها من ورقة زوّد بها، وذكر الجوائز، ولكنه أخطأ في العدد، فبدلا من أن تكون أربع عشرة جائزة صارت خمس عشرة. هكذا تُصنع الفنّاص، قال لي صديقي الفنّاص الذي كان في القاعة، ثم لم تُجد محاولاتي في إنكار تلك الجوائز نفعا، لأن الصحف ذكرت ذلك، والمعلومة ترسّخت في لاوعي الناس، ثم تعوّدت أنا على ذلك، لكن أمرا لا يزال يؤرّقني: ماذا سأقول إن سئلت عن تلك الجوائز.

تونس... قسَمٌ على احترام دستورٍ يحترق

عبدالله جنوف

انتهى الانسداد السياسي في تونس إلى نجاح، وسيضع أطرافا سياسيّة بعينها في عين العاصفة، ويسهّل استهدافها. ورموزٌ الفشل في تجربة ما قبل الانقلاب يرفضون الانسحاب من المشهد، ويعطّلون إمكانيّة صياغة برنامج عمل جامع. واقتسامُ الشارع أسبوعا لأنصار الانقلاب وأسبوعا لمعارضيه سيزيد الوضع سوءا وانسدادا، وقد ينقلب عنفا اجتماعيّا. ويمكن أن تنحرف المسيرات إلى العنف لأيّ سبب، وإن كان مفتعلا، ومشهد الاعتداء على صحافيّي القناة الوطنيّة الأولى في مسيرة 10 أكتوبر مثالٌ قريب. والخلاصة أنّ ضغط الشارع لن يكون منتجا وإن استمرّ، إلّا إذا وُجد أفقٌ واضح وبرنامج دقيقٌ. وأحسن مثال تجربة الجزائر التي فاق حراك الشارع فيها مائة جمعة، ثمّ سكن. وقد يصبح الحراك محنةً جديدةً يباد فيها أنصار الديمقراطيّة التمثيليّة فيعتد البرلمان. لكن، وهو من توقعات كل المراقبين لسلوك قائد التيار الصدري، وأهم هذه السلوكيات المزاجية في اتخاذ القرارات، ثم الأهم الانحناء لضغوط إيران المباشرة، والتي يعلم الصدر حجم جدّيتها في عدم تسامحها مع بخروج العراق من البيت الإيراني، وليس الشيعي، كما ينضّ خطابهم الإعلامي.

إذن، وأمام هذه الصورة القاتمة لأوضاع الحالة السياسية والأمنية العراقية، ما الذي ينبغي على كتلة الصدر فعله، لتحقيق رغبةً ناخبيه الذين يرون في خطابه المعلن بصيص أمل في إخراج العراق من حالة الفوضى والفساد والسلاح المنفلت والهيمنة الأجنبية عليه مقدّراته وتردّي الحالة المعاشية والتعليمية والخدمية، وكل المؤشرات السلبية الأخرى التي تؤشّرها ليس أحوال العراقيين فقط، بل وكل المنظمات الدولية بكل تخصّصاتها؟

أمام مقدّدي الصدر فرصة تاريخية ليبدأ أمام الصدر فرصة تاريخية ليبدأ في التحرّك، عبر فريقه، لتشكيل تحالفٍ لا يمكن اختراقه

إضافية، تعينه على هذا الأمر، وهي حصول تحالف «تقدّم» السنّي بزعامة محمد الحلبوسي على 37 مقعداً، والحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرزاني على 32 مقعداً، فإذا ما تم تحالف هذه القوى يكون لدى التحالف الجديد 142 مقعداً، وإذا ما تم التحرّك على الذين قدّموا أنفسهم «مستقلين»، وفازوا بـ 40 مقعداً، تكون النتيجة غير قابلة للمواجهة من تحالف أو تكتل آخر، لأن بقية القوى بكل انتماءاتها، القومية والدينية والطائفية، لا يمكنها تجاوز حاجز المائة مقعد إن تحالفت مع بعضها، وهذا شبه مستحيل، بحسب تاريخ التحالفات السياسية في العراق منذ 2005.

يراقب الشارع العراقي الأوضاع عن كثب، وهو، على الرغم من مقاطعة غالبيته الانتخابات، لن يسامح أو يتجاهل تجاه أي محاصصة طائفية قادمة، ولا أيّ من وجوه الفساد والإفساد المعروفة لديه، وملامح هيجان شعبي قد يفضي إلى حراكٍ يفوق انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول 2019، تستعر نيرانه تحت رماد انتخابات 2021، ينتظر الجميع خروجاً آمناً للعراق قبل أن تتحوّل إلى حرائق لا أحد يعلم إلى أين ستُفضي بهذا البلد المبتلى.

(كاتب عراقي في لندن)

العراق ومثلث الاستقرار

فارس الخطاب

العراق في حالة حرجة، نعم هو كذلك، فهو على الرغم من رهان بعضهم في الانتخابات المبكّرة التي جرت في 10 أكتوبر/ تشرين الأول الجاري ستكون بدايةً لطريقٍ ما يرى العراقيون، في نهايته، ضوءاً للاستقرار والرخاء السياسي والاقتصادي والأمني. تحالفات واحزاب وقوى انكشفت عوراتها بعد أن أفقدتها نتائج الانتخابات حتى جمهورها المفترض؛ كما حصل مع تحالف الفتح وليسليها عصائب الحق وحزب الله وأخرين يمتلكون أذرعاً ميليشياوية وموالين في الأجهزة الأمنية والعسكرية. وبدل مراجعة الأداء ورصد تجاوزاتهم لإدارة الصراع، ولا يمكن أن تجْمع الأنصار الحراك المنتمين إلى تيّارات واتّجاهات سياسيّة وفكريّة مختلفة. وتواجه الحراكَ مشكلاتٌ إجرائيّة أيضا، فحصْرُ تنظيم المسيرة في العاصمة ليس عمليّا، لتكاثيفه الكثيرة، وضعف نتائجه بعدما تحقّقت غايته الرئيسيّة، وهي إقناع الرأي العام الوطنيّ والعالميّ بأنّ مشروعيّة تمثيل الشعب لا يحتكرها قيس سعيّد وحده كما يوهم بذلك خطابه. وتنظيمُ المسيرات في الوُلايات/ المحافظات ليس أمرا مضمونَ الحقيقيّة، أي تغيير النظام السياسيّ.

هذا الانسداد يعني أنّ الانقلاب بالفعل بدأ الآن، فله رئيس/ زعيم يجمع في يده السلطات كلّها ولا يراقبه ولا يعترض عليه ولا يمنعه أحد؛ وله واجهةٌ حكوميّة إجرائيّةٌ يُفترض أن تخاطب العالم، وأن تسارع إلى حلّ مشكلات المواطنين؛ وله قوّة أمنيّة/ عسكريّة يرجع إليها الفضل في نجاح عمله؛ وله جنود مجنّدة من الإعلاميّين والفنّانين والكتّاب و«المنظرين» والذباب الإلكتروني؛ وله داعمون دوليّون وإقليميّون. وله معارضة منقسمة: تعلن مقاومة الانقلاب وتقسّمها معاركها الإيديولوجيّة، وفيها «تماسيح» ترفض أن تبدّل جلدها أو أن تخبّئ وجوهها؛ وله مشروع يجد من يدعو إليه اقتناعا به أو شماتة في خصومه. ويعلّل معارضو الانقلاب أنفسهم بعبارات متكلسة مثل «الانقلاب يترنّح»، و«الانقلاب إلى زوال» و«السيف لا ينتصر على الدم»... وهذا خطاب تسكين نفسيّ، يمكن أن يقارب تاويلا واحدا هو حظر تنظيم المسيرات. ووزيرُ الداخليّة الجديد يعود إلى الوزارة منتصرا، فقد أقاله رئيس الحكومة، هشام المشيشي، في يناير/ كانون الثاني 2021، والغى قراراته التي أقال بها قيادات كبيرة في الوزارة وعيّن غيرها. والأرجح، إذن، أنّ قمع المسيرات بتعلّة التفرّغ لمحاربة الفساد والفقر والتأسيس لسيادة الشعب فيما بها من تصف نفسها بـ«المقاومة». والأهم تحذيره سفارات أجنبية، يؤكد العراقيون أنه قصد بها السفارة الإيرانية ثم الأميركية والبريطانية، وهو ما زاد من وتيرة تحشيد «البيت الشيعي السياسي» وتهديداتها باخذ حقوقها الانتخابية وحقوق ناخبيه ولو بقوة السلاح.

من خلال الأوضاع القلقة والحرجة جداً في العراق، ومع تزايد التحشيد السياسي «الشيعي» مع تحرّكات واسعة لكسب الأكراد وكتلة «عزم» السنية وغيرها، في محاولة لتشكيل تحالف كبير، يتجاوز عدد مقاعد مقتدى الصدر، ويقدّمون لتحالفهم مرشحا لرئاسة الوزراء، هو نوري المالكي، وهو ما يستدعي حراكاً أسرع وأوسع للتيار الصدري باتجاه تشكيل تحالف لا يمكن مجاراته تحت قبة البرلمان. لكن، وهو من توقعات كل المراقبين لسلوك قائد التيار الصدري، واهم هذه السلوكيات المزاجية في اتخاذ القرارات، ثم الأهم الانحناء لضغوط إيران المباشرة، والتي يعلم الصدر حجم جدّيتها في عدم تسامحها بخروج العراق من البيت الإيراني، وليس الشيعي، كما ينضّ خطابهم الإعلامي.

إذن، وأمام هذه الصورة القاتمة لأوضاع الحالة السياسية والأمنية العراقية، ما الذي ينبغي على كتلة الصدر فعله، لتحقيق رغبةً ناخبيه الذين يرون في خطابه المعلن بصيص أمل في إخراج العراق من حالة الفوضى والفساد والسلاح المنفلت والهيمنة الأجنبية عليه مقدّراته وتردّي الحالة المعاشية والتعليمية والخدمية، وكل المؤشرات السلبية الأخرى التي تؤشّرها ليس أحوال العراقيين فقط، بل وكل المنظمات الدولية بكل تخصّصاتها؟

أمام مقدّدي الصدر فرصة تاريخية ليبدأ أمام الصدر فرصة تاريخية ليبدأ في التحرّك، عبر فريقه، لتشكيل تحالفٍ لا يمكن اختراقه

إضافية، تعينه على هذا الأمر، وهي حصول تحالف «تقدّم» السنّي بزعامة محمد الحلبوسي على 37 مقعداً، والحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرزاني على 32 مقعداً، فإذا ما تم تحالف هذه القوى يكون لدى التحالف الجديد 142 مقعداً، وإذا ما تم التحرّك على الذين قدّموا أنفسهم «مستقلين»، وفازوا بـ 40 مقعداً، تكون النتيجة غير قابلة للمواجهة من تحالف أو تكتل آخر، لأن بقية القوى بكل انتماءاتها، القومية والدينية والطائفية، لا يمكنها تجاوز حاجز المائة مقعد إن تحالفت مع بعضها، وهذا شبه مستحيل، بحسب تاريخ التحالفات السياسية في العراق منذ 2005.

يراقب الشارع العراقي الأوضاع عن كثب، وهو، على الرغم من مقاطعة غالبيته الانتخابات، لن يسامح أو يتجاهل تجاه أي محاصصة طائفية قادمة، ولا أيّ من وجوه الفساد والإفساد المعروفة لديه، وملامح هيجان شعبي قد يفضي إلى حراكٍ يفوق انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول 2019، تستعر نيرانه تحت رماد انتخابات 2021، ينتظر الجميع خروجاً آمناً للعراق قبل أن تتحوّل إلى حرائق لا أحد يعلم إلى أين ستُفضي بهذا البلد المبتلى.

(كاتب عراقي في لندن)

كاريكاتير **عماد حجاج**

العبادرة الأردنية والوجع السوري

عبد الباسط سيدا

من البيّن الذي لا يحتاج إلى التذكير به دائماً أن المبادرات العلنية، أو السرّية، التي طرحتها الدول المنغمسة في الموضوع السوري مباشرة، أو دول الإقليم التي تأثرت بالوضع السوري، أو تلك التي تريد أن تستفيد منه، إنما ترمي إلى تحقيق تسويةٍ ما بحسابات تلك الدول، ووفق مصالحها، ومن دون أي مراعاةٍ لحجم التضحيات التي قدّمها السوريون من أجل مستقبلٍ حرٍّ كريم لهم ولأجيالهم المقبلة. وهي مبادرات تُغلّف عادة بعمومياتٍ بات تكرارها مملاً عقيماً، خصوصاً أنها عموميات لا يُختلف حولها؛ وإنما كل الخلاف حول التفاصيل التي تظل بعيدة عن التحديد الصريح، وذلك في سياقٍ سعي كل طرف إلى إظهار نفسه في موقع الحريص على مصلحة السوريين، وربما أكثر من السوريين أنفسهم.

تتقاطع المبادرات والتصريحات والتسريبات الخاصة بالملف السوري، ومنها مبادرة العاهل الأردني، عبدالله الثاني، حول محاربة الإرهاب، والتخفيف من معاناة السوريين المعيشية، وإعادة الإعمار، وعودة اللاجئين إلى المناطق التي هُجّروا منها، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وضرورة اعتماد الحل السياسي الذي يحافظ على وحدة سورية وسيادتها. ولكن حين الانتقال إلى مستوى التفاصيل، والحلول الملموسة المقترحة لمعالجة الموضوع السوري، نرى بوناً شاسعاً بين معاناة السوريين وتطلعاتهم وما يدعو إليه أصحاب تلك المبادرات، فالحل السياسي كان، وسيظل، هو المطلوب منذ بداية الثورة في مارس/ آذار 2011؛ ولكن الوصول إلى أي حل سياسي تتحدّث عنه المبادرات والقوات الأجنبية إلى سورية؛ ومارس الإرهاب، ومهّد الطريق أمام الإرهاب في حربه على الشعب السوري، التي تسببت في تدمير العمران والبنية التحتية، وقتْل نحو مليون سوري، وتهجير أكثر من نصف الشعب، وشل الاقتصاد الوطني، وفرض البؤس المعيشي على الغالبية الساحقة من السوريين؛ أم أن هذا الحل سيقوم على تحديد أسباب المشكلة بغية معالجتها عبر إيجاد الحلول الواقعية الممكنة التي تضمن الأمن والاستقرار، وتطمئن الناس عبر المصالحة الوطنية الفعلية، وتعزّز الآمال بإمكانية تحسين شروط العيش المشترك وقواعده وأفاقه؟

ما حصل، ويحصل، في سورية منذ أكثر من نصف قرن أن زمرةً سلطوية قد تمكّنت من التحكّم بمفاصل الدولة والمجتمع بفعل الجيش والأجهزة الأمنية، واستطاعت، مع الوقت، ترتيب أوراقها مع القوى الإقليمية والدولية، لتحظى بصفقة التحكّم برقاب السوريين وموارد بلدهم مقابل أدوار وظيفية اتّضحا، وهي على استعداد لتأدية مزيد منها، وذلك بموجب صفقة، أو صفقات جديدة، تراعي المتغيرات التي كانت، أو التي ستكون مستقبلاً. وتتنبهة لسلطة الاستبداد والفساد والإفساد، لم يجد السوريون أمامهم من سبيل سوى الثورة على تلك السلطة، بعد أن سدّت كل الأبواب أمام إصلاح تدريجيّ حقيقي، كان من شأنه تجنيب العباد والبلاد الكوارث التي كانت، وما زالت.

مبادرة ملك الأردن التي جاءت في صيغة الأوراقة تؤكد رغبة أردنية في فتح الحدود مع سورية، بهدف الاستفادة من الحركة التجارية بين لبنان وسورية ودول الخليج وغيرها من دول كانت تمد الاقتصاد الأردني الضعيف أصلاً بموارد لا يُستهان بها؛ وهي مبادرة جوهرها التطبيع مع النظام الأسدي الذي لم يعترف بوجود مشكلة في سورية تستوجب المعالجة، وإنما يصرّ على أن كل ما حدث كان في عداد مؤامرة كونية استهدفت النظام «المقاوم والممانع» الذي تمكّن، بفعل مساعدة «الأصدقاء الإيرانيين والروس»، من الانتصار، في نهاية المطاف، على «قوى العدوان وعملائهم من السوريين»؛ وذلك وفق ما يردّده بشار الأسد في كل خطاباته. أما الحل النهائي الذي ينتظره هذا النظام فهو أن يتمكّن من بسط سلطته بدعم وتدخل مباشرَيْن من الروس والإيرانيين على كامل التراب السوري.

وعلى الرغم من الحماس اللافت لدى الملك عبدالله الثاني في تسويق مبادرته، ومحاولة إقناع الأطراف الدولية والإقليمية بجدواها، وهي مبادرةٌ لا يُعتقد بأنها من الوحي الأردني الخالص، يلاحظ أن الموقف الأميركي ما زال في دائرة الحرص على عدم إغلان الدعم المباشر لها، وهو موقفٌ يجد صداه عند الأوروبيين الذي يبدو أنهم ينتظرون تبلور ملامح الموقف الأميركي بصورة أكثر من الموضوع المعني.

بخصوص الموقف الأميركي نفسه، يبدو أنه يخضع لجملة اعتبارات، في مقدمتها الداخلية الأميركية، فالانتقادات القاسية التي تعرضت لها إدارة الرئيس جو بايدن، بعد الانسحاب السريع من أفغانستان، وسيطرة حركة طالبان على البلاد، دفعت الإدارة المعنية إلى التمهّل في الانسحاب من أماكن أخرى، كما أن التحسّب لتقدم جمهوري في الانتخابات النصفية للكونغرس يُعد من العوامل التي تُلزم إدارة بايدن بضرورة التريث في اتخاذ مزيد من الخطوات في ميدان التخفيف من الضغط على نظام الأسد، وذلك بعد تصريحات أميركية أكدت عدم وجود رغبة في تغيير النظام، وبيّنت أن المطلوب تغيير سلوكه؛ وما أعقب ذلك من إعطاء الضوء الأخضر لمشروع تزويد لبنان بالغاز من مصر عبر الأردن وسورية، الأمر الذي فُسّر بأنه بداية الانفتاح على النظام الأسدي.

من جهة أخرى، يلاحظ أن الموضوع السوري بات بالنسبة إلى الولايات المتحدة مرتبطاً بالمباحثات الجارية بشأن الملف النووي الإيراني، ومستقبل الوجود والدور الإيرانيين في كل من سورية ولبنان والعراق. ولا يخص هذا الأمر الجانب الأميركي وحده، بل يشمل الجانب الإسرائيلي أيضاً؛ ولعل هذا ما يفسّر جانباً من التحركات الإسرائيلية المكثفة، سواء مع الروس أم مع الأميركان، والدول العربية المعنية. وهناك حديثٌ عن قرب لقاء أمني ثلاثي على أعلى المستويات بين الروس والأميركان والإسرائيليين، بغرض الاتفاق على مزيد من التفصيلات الخاصة بملف الدور الإيراني في سورية، والتنسيق الميداني.

وفي ظل كل هذه الأجواء، جاءت تصريحات وزير الخارجية الأميركي، أنتوني بلينكن، حول ما تريده وأشنطن وما لا تريده في سورية، في أثناء اجتماعه مع وزيري خارجية كل من الإمارات عبدالله بن زايد وإسرائيل يئير لبيد في واشنطن؛ لتؤكد استمرارية الغموض في الموقف الأميركي الذي لا يشجّع المبادرة، ولا يعلن رفضه صراحة ذلك التطبيع، كما أن العبارات العامة عن الحل السياسي المنشود لا تفصح بدقة طبيعة المطلوب أميركياً في سورية. ولعل عدم تعيين مبعوث أميركي خاص بالملف السوري، إلى جانب غياب سورية عن خطابات الرئيس بايدن، فضلاً عن عدم حدوث لقاء رسمي بين الوزير بلينكن والمبعوث الأممي الخاص بسورية، غير بيدرسون، لعل ذلك كله يشير إلى عدم حضور سورية ضمن قائمة الأولويات الأميركية، على الأقل في الجانب العلني، فالعبارات العامة التي استخدمها بلينكن تبدو كأنها صادرة عن مراقبٍ محايدٍ من خارج دائرة الدول الفاعلة في الملف السوري.

أساس المشكلة في سورية، بل جذرها، يتمثل في نظام بعدّ المسؤول الأول عن كل ما حلّ بالسوريين وبلدهم من قتل وتهجير وتدمير، بل هو مسؤول عن مشكلات كثيرة في لبنان والعراق وغيرهما، وسورية بلد مفتاحي يؤثّر في المنطقة بأسرها سلباً وإيجاباً. وبناء على ذلك، لا يمكن تحقيق الهدوء في المنطقة، وبلوغ الأمن والاستقرار فيها، تمهيداً للنهوض بها عبر مشاريع تنمية واسعة تساهم في وضع حد للتطرّف والإرهاب، وهي مشاريع تمتلك المنطقة مقوماتها؛ ولن يتحقق ذلك كله ولن ينجز من دون استقرار متوازن في سورية نفسها، من خلال طمأنة شعبها بكل مكوناته، ومن دون أي استثناء على قاعدة احترام الخصوصيات والحقوق، والتشارك في الإدارة والموارد. أما المحاولات والمبادرات التي تهدف إلى معالجة الأعراض والنتائج التي كانت بفعل سياسات نظام بشار الأسد وممارساته؛ وتغضّ النظر، في الوقت ذاته، عن الأسباب الجوهرية التي أدّت إلى وصول السوريين إلى الوضع الكارثي الذي يعيشونه راهناً، فإنها لن تساعد في الوصول إلى المعالجة السببية المطلوبة، بل على النقيض من ذلك ستساهم في استمرارية دورة العنف وعدم الاستقرار في المنطقة؛ والمبادرة الأردنية، وفق المعطيات المتوفرة عنها، لن تكون في هذا المجال استثناء.

(كاتب ورئيس سابق للمجلس الوطني السوري)

خرق سعيّد الدستور بالإجراءات الاستثنائيّة، ولم يستطع إقناع أحدٍ بسلامة تاويله، ثمّ ألغى أكثره بالأحكام الانتقاليّة

السياديّ من B3 إلى Caa1، مع نظرة مستقبليّة سلبيّة. وهي وضعيّة ستزداد فيها صعوبة الاقتراض من الخارج، وقد يصل الأمر إلى فقدان سلع حيويّة من السوق التونسيّة وانقطاع أهمّ الخدمات وانهيار قيمة الدينار وزيادة التضخّم وانعدام الثقة في المؤسّسات التونسيّة المتعاملة مع الخارج. إلخ .. ولا تدلّ خطابات الرئيس على أنّه مدرك لخطورة هذه الوضعيّة، ولا على امتلاكه كيفيّة معالجتها وتخفيف أضرارها، إلّا أنّ المدير العامّ للتمويل والدفوعات الخارجيّة في البنك المركزيّ التونسيّ تحدّث (15 أكتوبر/ تشرين الأوّل) عن وجود مناقشات متقدّمة جدّا مع كلّ من السعوديّة والإمارات «من أجل تعبئة موارد الدولة». وقد كان متوقّعا أن يجد سعيّد دعما ماليّا من هاتين الدولتين. والمشكلة الثانية سياسيّة مركّبة، وجهها الأوّل «معارضة» دول مؤثّرة الانقلاب، ومن نتائجها إلغاء القمّة الفرنكفونيّة الثامنة عشرة التي كان مقرّرا عقدها في جربة في الشهر المقبل (نوفمبر/ تشرين الثاني)، وتعليقُ عضوية تونس في الجمعيّة البرلمانيّة للفرنكفونيّة، وتخصيصُ لجنة الشؤون الخارجيّة في الكونغرس الأميركي جلسة للوضع في تونس، واستعدادُ مجلس وزراء خارجيّة الاتحاد الأوروبيّ، والبرلمان الأوروبيّ لمناقشة الأوضاع في تونس قريبا. ويطالب الاتّحاد الأوروبيّ قيس سعيّد بوضع جدول زمنيّ واضح للعودة إلى النظام الدستوريّ، «على أساس الفصل بين السلطات، واحترام سيادة القانون والديمقراطية البرلمانيّة». ووجهها الثاني وقوع سعيّد في استعداء الدول بشعار «الدفاع عن السيادة الوطنيّة»، فهو يحتاج هذا الشعار لزيادة شعبيّته وصناعة صورة الزعيم الوطنيّ المدافع عن السيادة والاستقلال، فمعارضوه لم ينسوا له قوله، في قناة فرنسيّة العامّ الماضي، إنّ وجود فرنسا في تونس كان حماية لا احتلالا. ووجهها الثالث مشروعُ سعيّد نفسُه، فاستعجال تطبيق «سيادة الشعب»، والانهماك في قضايا الديمقراطيّة المباشرة، والعمل على إنجاح «التأسيس السياسيّ الجديد»، واستثناء الأحزاب والمنظّمات الوطنيّة والجمعيّات من الحوار، هذا كلّه سيزيد الوضع الاقتصاديّ سوءا، والوضعُ السياسيّ احتقانا لاختلاف سعيّد والمركزيّة النقابيّة وكثير من الأحزاب في الموقف من الأحزاب والديمقراطيّة والحوار وكيفيّة معالجة الأزمة التونسيّة العامّة المتفاقمة، وإن تقاطعوا مؤقّتا في هدف إضعاف النهضة وائتلاف الكرامة أو إقصائهما. ويضاف إلى هذا أنّ حكمَ الرئيس المطلقَ الذي بدأ بالفعل يوم تنصيب الحكومة فيه وهن رمزيّ شديد، فقد خرق سعيّد الدستور بالإجراءات الاستثنائيّة، ولم يستطع إقناع أحد بسلامة تاويله، ثمّ ألغى أكثره بالأحكام الانتقاليّة (المرسوم 117)، وحطّ منزلته فجعله تابعا لأوامره يسقط ما عارضه منه، ثمّ أحرقه أنصاره في وقفتهم، وصوّروا أنفسهم يهتفون باسم زعيمهم، ولم يلاحَظ منهم أحد. ويوم تنصيب الحكومة، وقف وزراؤه يقسمون على احترامه. القسَم على احترام دستور يحترق قسمٌ على معدوم، لكنّ الاستبداد جبان.

(أستاذ جامعي تونسي)

المشكلة تتمثل في نظام يعدّ المسؤولَ الأول عن كل ما حلّ بالسوريين وبلدهم من قتل وتهجير وتدمير

وما لا تريده في سورية، في أثناء اجتماعه مع وزيري خارجية كل من الإمارات عبدالله بن زايد وإسرائيل يئير لبيد في واشنطن؛ لتؤكد استمرارية الغموض في الموقف الأميركي الذي لا يشجّع المبادرة، ولا يعلن رفضه صراحة ذلك التطبيع، كما أن العبارات العامة عن الحل السياسي المنشود لا تفصح بدقة طبيعة المطلوب أميركياً في سورية. ولعل عدم تعيين مبعوث أميركي خاص بالملف السوري، إلى جانب غياب سورية عن خطابات الرئيس بايدن، فضلاً عن عدم حدوث لقاء رسمي بين الوزير بلينكن والمبعوث الأممي الخاص بسورية، غير بيدرسون، لعل ذلك كله يشير إلى عدم حضور سورية ضمن قائمة الأولويات الأميركية، على الأقل في الجانب العلني، فالعبارات العامة التي استخدمها بلينكن تبدو كأنها صادرة عن مراقبٍ محايدٍ من خارج دائرة الدول الفاعلة في الملف السوري.

أساس المشكلة في سورية، بل جذرها، يتمثل في نظام بعدّ المسؤول الأول عن كل ما حلّ بالسوريين وبلدهم من قتل وتهجير وتدمير، بل هو مسؤول عن مشكلات كثيرة في لبنان والعراق وغيرهما، وسورية بلد مفتاحي يؤثّر في المنطقة بأسرها سلباً وإيجاباً. وبناء على ذلك، لا يمكن تحقيق الهدوء في المنطقة، وبلوغ الأمن والاستقرار فيها، تمهيداً للنهوض بها عبر مشاريع تنمية واسعة تساهم في وضع حد للتطرّف والإرهاب، وهي مشاريع تمتلك المنطقة مقوماتها؛ ولن يتحقق ذلك كله ولن ينجز من دون استقرار متوازن في سورية نفسها، من خلال طمأنة شعبها بكل مكوناته، ومن دون أي استثناء على قاعدة احترام الخصوصيات والحقوق، والتشارك في الإدارة والموارد. أما المحاولات والمبادرات التي تهدف إلى معالجة الأ

القرن الأفريقي ومهمّة المستقبل الإسلامي

مهنا الحبيل

فُتحت لي، خلال سنوات المهجر، الأبواب للتعرّف على نخبٍ مميزةٍ من شباب دول القرن الأفريقي، تحديداً الصومال وإريتريا وجيبوتي وإثيوبيا، وإنْ كان هذا التميز لا يقف عند هذه الدول على مستوى أفريقيا، وإنما موج الفكرة النهضوية والتنوير الإسلامي الرشيد يتقدّم اليوم في كل أفريقيا السمراء. ولكن لهذه المنطقة خصوصية مؤثرة جداً على الوطن العربي، وعلى معنى البعث الفكري الجديد الذي يحتاجه الشرق بتعريفه جغرافيا فكرية لا طبيعية، وقصة عالم الجنوب التي لا تزال حاضرة تدافعا فكريا يشمل الشراكة الإنسانية والمواجهة للسياسات الإمبريالية.

ولعل وجود العروبة على ضفاف هذا القرن وعمقه يُعزّز هذا التجاذب الجديد، لكن العرب والعروبة هنا لا تقفان عند الأصل العرقي، وإنما الجوار والملازمة واللسان، والتداخل الديموغرافي والأنثروبولوجي العميق. وحين تغيّرت الأوضاع السياسية في الخليج العربي، قذف موجُ الهجرة كنزاً من شباب هذه الدول، كانوا ولا يزالون أشقاء الروح وشركاء الوطن من دون جنسية موحّدة، فهنا وطن الفكر واتحاد العاطفة الذي جمعنا مع أبنائنا من مواليد السعودية وغيرها، تصنع لنا رباطاً وثيقا جميلاً في مهجرنا الجديد. هذا الموج الشبابي الذي حطّ رحاله منذ عقد وتكاثر جمع بين القاعدة الفكرية والاجتماعية التي خالطها في الخليج العربي وميراث آبائه ومدارس الإنسان في شرق أفريقيا، عربه وأفارقته، وبين مسرح الحياة الجديد في المهجر الغربي، وأضف على ذلك عالم إسطنبول المحتشد. إذاً، هذا التمازج والاندماج في رحلة المهاجرين الجدد أوجد أرضية إبداع وتميّز، في العبور إلى ضفة الحياة بفكرة الإسلام الرسالي، وبآفاق تمازجه الإنساني، وهي فكرةٌ خُنقت في الخليج سابقاً، لأسبابٍ مذهبيةٍ وسياسية. أما اليوم فهي تنتقل إلى مدارات حرّيةٍ أخرى، هذه الحرية الفكرية تتقدّم في فتح باب فلسفة الفنون والآداب الإنسانية. وعلاقتها بجوهر الرؤية الكونية مدرسةٌ قديمةٌ جديدةٌ خطاها فلاسفة متقدّمون ومتأخرون، لم يبتدعها علي عزت بيغوفيتش، لكنّه أسّس لها ميداناً معاصراً بتنظير حديث، فأعلن عبد الوهاب المسيري أنها الطريق الجديد لعالمية الإسلام، هي الفكرة ذاتها التي أدركها الإمام المعاصر محمد الغزالي، هناك بوعي فقيهٍ وهنا بفكر فلاسفة ناقدين.

إذاً، هؤلاء الشباب أو تيار التشكل الجديد في القرن الأفريقي تُقارب سفينتهم هذا المنهج، ولكنهم يوجدون اليوم تحت طبول العهد الأفريقي الجديد، حشد من الصراع القبلي والسياسي والاجتماعي والثقافي، تعجب كيف ينفجر في الدول الحديثة على أساسٍ عرقي، وبالطبع تحرّك فتنته السياسة، وهذه النخبة التي أعرفها ممتدة على طول قبائل الشرق الأفريقي الكريمة ودوله. وتتداخل هنا مساحات الصراع بين لعبة الأمم وأصدقاء أفريقيا الجدد، وبين تفجير مكونات هذه المجتمعات المهمة. ولا يعنينا القول بوجود مؤامرة، ولا يجب أن نشغل أنفسنا بذلك، فهي تحصيل حاصل في الأطماع الدولية التي لم تعد تقف عند الغرب الروسي أو الأوروبي أو الأميركي، بل هناك من ينافسها من أقصى الشرق، ومن دولٍ قريبة لها أهدافها الخاصة في حرائق الصراع في الشرق الأفريقي. وعليه، وجود أياد لها مصالح في منع القرن الأفريقي من الاستقرار واردٌ دوما. لكن قضيتنا العتيقة في الشرق المسلم أو عالم الجنوب أننا لم ننصّب «الناطور» الحضاري والسياسي لصالح شعوبنا في الأصل، فضلاً عن أن نحمي العنب، وهو هنا مصالح القرن الأفريقي الاستراتيجي. ولذلك لن يُسعف الغرق في نظرية المؤامرة هذه الشعوب، كما أن الهيكل السياسي اليوم، وإن برزت مؤشّراتٌ إيجابية ديمقراطية، في إثيوبيا وفي الصومال، تساعد على التغيير الإيجابي، لكنها لا تزال هشّة وواقع التمزق أكبر، ومؤسفٌ جدا أننا نشهد هذه الصراعات باسم القبيلة أو الأقاليم، ولا تتوقف حتى تُنهك البلاد والعباد وتمسّ الآمنين المطمئنين. هنا تتخلق لنا فكرة العهد الشابي الجديد للقرن الأفريقي.

مهام اليوم للإصلاح تكاد تتجذّر حول الإصلاح الفكري، وروح هذه النخبة الإسلامية الجديدة من شباب هذه الدول، هي علامة فارقة، ليس عبر قوالب المذهبيات والجماعات الحزبية الدينية، فضلاً عن إرث جماعات العنف الديني، والتي تستقي، مع الأسف، من وجود أرضية ثقافية عمياء لا تفهم الأفق الإنساني، كانت أفريقيا ضحية لها، عبر التصدير المذهبي الذي وصل إليها من الوهابية أو الطائفية الإيرانية. ولكن عبر العودة إلى بعث الإحياء الإسلامي في أفريقيا، بوصفه عامل توحيد إنساني، ومنهجا اجتماعيا مرنا وواسع الأفق، يُبشّر بروح جامعة لكل أطياف القرن الأفريقي، منفتحا على الفكرة العلمانية الإنسانية لنخب أفريقيا، كما هي جسورُه مع حركة العلم الشرعي ومؤسساته، من دون أن يرتهن لأي أحد أو أن يؤجّر فكره لعدوٍ أو صديق، وسيُنابذ حتماً من باريس ووكلائها، وسيُحارب من قوى التطرّف ومن يديرها لمصالحه. وفي النهاية، تولد، عبر تحالف الإسلاميين النهضويين وشركائهم من الأرض السمراء في كل الفنون من الموسيقى إلى الفلسفة، حركة بعثٍ تعلن للأجيال القادمة، دعونا نعود إلى ناموس الله العظيم. شعوباً وقبائل تعرّفنا من قبل، ونتعاضد اليوم وقد منحتنا الرسالة الإسلامية قرار الحرية، والإدارة السياسية والاقتصادية للأمم الأفريقية، وسلبتها منا المنظومة الغربية بالدماء والجنازير، واليوم بسياسة الإبادة الفكرية لصالح التقدّم الغربي.

> الهيكل السياسي اليوم، وإن برزت مؤشّراتٌ إيجابية ديمقراطية، في إثيوبيا وفي الصومال، تساعد على التغيير الإيجابي

كلا... فالأُمم الأفريقية فوق أن تُحصر في ملعب كرة، والإسلام حاضنٌ أو راع أو مشجّعٌ مباركٌ للتضامن الأخلاقي، فالمعركة ليست معه، ولا مع العرب الراشدين الذين حملوا رسالته، ولكن مع التخلف والتدخل الخبيث. وتحتاج هذه الرسالة أن تُركّز عليها جهود الشباب النهضوي في القرن الأفريقي، وهي تحتاج زمنا لكي تصنع أرضية للفكرة الأخلاقية، وتحتاج جهوداً ومرابطةً على الاستقلال ووضع مساحاتٍ بين المهمة الفكرية وخطاب البروباغندا المتجدّد في الساحة الإسلامية العربية، فسقوط المنابر في نزعة تشدّد جديدة لن يصلح ما أفسدته جرائم الغرب وجاهلية حكومات (إسلامية) أفريقية.

(كاتب عربي في كندا)

المستوطنون واغتيال الزيتون

أسامة عثمان

قُبيل كلِّ موسم من مواسم قطف الزيتون في فلسطين، وفي أثنائه، يزداد استهدافُ المستوطنين شجرةَ الزيتون، بالقلع والحرق والنشر، وسائر أشكال التخريب، حين يكون الفلاحون الفلسطينيون وغيرهم في انتظار ثمرها الذي طالما شغل مكانةً تتجاوز قيمتَها المادية، فالزيت عمارة البيت، وهو كما في المثل الشعبي «مسامير الرُّكَب». ووفقًا لرئيس هيئة شؤون الجدار والاستيطان، في السلطة الفلسطينية، وليد عساف، يشنّ المستوطنون حملة اعتداءات على المزارعين وأراضيهم، تزداد في موسم قطف الزيتون الذي يشكّل مصدر دخل لنحو مائة ألف أسرة فلسطينية. ويكرّر مزارعون تقديم شكاوى لشرطة الاحتلال، من دون أيّ استجابة مُجدِية، وفق شهادات عدّة لمزارعين فلسطينيين، تعرّضت أشجارُهم للتخريب المتعمَّد. وكثير من تلك الأعمال التخريبية تجري بحماية قوّات الاحتلال، وتُظهر بياناتُ اللجنة الدولية للصليب الأحمر في القدس، وأجدُدها في 12 أكتوبر/تشرين الأول الجاري، أنه خلال فترة عام (أغسطس/آب 2020- أغسطس/آب 2021) جرى تدمير أكثر من 9300 شجرة زيتون في الضفة الغربية. ويزيد هذا من تعقيد الوضع الصعب، بالفعل، ويعمّق الأزمة؛ إذ على المزارعين الذين تقع حقولهم خلف الجدار الفاصل، أو بالقرب من المستوطنات، التقدُّم للحصول على تصاريح خاصة، للوصول إلى أراضيهم. وتقول رئيس بعثة اللجنة الدولية في القدس، إلس ديبوف، إن اللجنة الدولية لاحظت، على مدار السنوات، ارتفاعًا موسميًا في أعمال العنف التي يرتكبها المستوطنون الإسرائيليون المقيمون في بعض المستوطنات والبؤر الاستيطانية في الضفة الغربية تجاه المزارعين الفلسطينيين، وممتلكاتهم في الفترة التي تسبق موسم قطف الزيتون، وكذلك خلال موسم الحصاد في شهري أكتوبر/تشرين الأول ونوفمبر/تشرين الثاني. وتضيف: «كما يتعرّض المزارعون لأعمال مضايقة وعنف تهدف إلى منع نجاح المحصول، ناهيك عن إتلاف معدّات الزراعة واقتلاع أشجار الزيتون وحرقها. إنه أمر مقلق للغاية، وسنواصل حوارنا مع السلطات المسؤولة بشأنه».

ما سرُّ عداء المستوطنين لأشجار الزيتون في فلسطين؟ ألأنَّ أكثرَها أقدمُ من وجودهم؛ فهم يشعرون بطارئيَّتهم، واقتحامهم المشهد، مقابل ذاك التلاحُم والتآلُف بين الفلاح الفلسطيني وأرضه وزيتونه الصُّلْب الراسخ؟ أم لأنها بخضرتها الدائمة والمثمرة من الدلائل على حضارة الشعب الفلسطيني؟ أم لأنها من مصادر الصمود الفلسطيني والعطاء المتواصل؛ من الأجداد إلى الأبناء والأحفاد؟ أم لأن موسم قطف الزيتون يغيظهم، بحيويته وتدفُّقه، متوازيًا مع تدفُّق الزيت في المعاصر، في طقس جمعي احتفالي سنوي؟ مهما كانت الدوافع، هذه الأفعال الاقتلاعية التي تُحيل أرضًا مشجَّرة إلى جرداء، بعد الحرق، أو بعد الاقتلاع، أو النشر (حين لا يواتيهم الصبر)، هي في مقابل الفعل الحضاري الإنساني، وخصوصًا في عصرنا هذا الضِّنين بالشجر، والحريص على استبقائه؛ لاستبقاء ما أمكن من الأوكسجين، ومظاهر الحياة الطبيعية. يأتي المستوطن، على أشجار الزيتون المثمرة، والمعمّرة، بعود ثقاب حارق، أو بجرّافة كاسحة، أو بمنشار سريع الإزهاق لروح الشجر؛ ليقضي، في لحظاتٍ، على تعب سنين، وصبر طويل، وحنوٍّ من أصحابها الأصليِّين؛ فاعليَّة سلبٍ مقابل فاعليَّة إيجاب، فلا هم يتركون الشجَر إلى دورة حياته المديدة، ولا هم حتى ينتفعون بها. (إلا حين يقرّرون سرقة ثمار الزيتون). أرض فلسطين المباركة، أرض التين والزيتون.. والزيتونة القَنوعة إلى الماء، تنبت، وتنمو، وتتعمَّق، ولو في عرق صخرة.. أقدر على الصمود والاستغناء من شجر ونبات كثير غيرها؛ تستفيد دولةُ الاحتلال من بيع لوازمها للسوق الفلسطينية؛ من وسائل الرّي، ومن مبيداتٍ، وسماد، وغيرها.

> في موسم قطاف الزيتون مظهر طبيعي وعفوي لشعبٍ على أرضه، وبين غرْسه، يزاحم الوجودَ الاستيطاني المصطَنع

وتنتج الضفة الغربية أكثر من 95% من الإنتاج الكلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 67. وهذه الكمية من الإنتاج تقدر قيمتُها بحدود 80-90 مليون دولار. وبذلك، تشكّل قيمة هذا الناتج 12- 13% من قيمة الدخل الزراعي الذي يقدَّر في حدود 800 - 900 مليون دولار سنويًا، وتسهم الزراعة في الدخل الإجمالي لفلسطين بنسبة 20 - 25%.

في موسم قطاف الزيتون مظهر طبيعي وعفوي لشعبٍ على أرضه، وبين غرْسِه، يزاحم الوجودَ الاستيطاني المصطَنع، مقابل دولة الاحتلال التي، بكلِّ إمكاناتها، تحاول باستمرار تغيير الطبيعة الفلسطينية ومعالمها، بالطرق الالتفافية، وتشجِّع المستوطنين على الإقامة في مستوطنات الضفة الغربية؛ على أمل أن يصبح وجودُهم طاغيًا، في الطرق، وعلى التِّلال. ويحيل هذا الاستهداف الاستيطاني لشجرة الزيتون إلى استهداف الاحتلال الأشمل الريف الفلسطيني الذي يقع معظمُه في المناطق المصنَّفة ج، والتي تخضع خضوعًا تامًّا ومباشرًا للاحتلال، هذا الريف الذي كان مسكَن معظم الفلسطينيين، أوائل القرن العشرين. والاستهداف، اليوم، لا يقتصر على الأرض والموارد المادية، بل يتعدَّاهما إلى الموارد البشرية، حيث يجري استقطاب كثيرين من أبناء الريف إلى العمل في الداخل الفلسطيني والمستوطنات الصهيونية؛ ما أسهم، مع عوامل داخلية فلسطينية، إلى تغذية الروح الربحية السريعة، مقابل الاكتفاء، أو شبه الاكتفاء، من الأرض وفلاحتها، أو الاستثمار الزراعي فيها.

هذا الإصرار الفلسطيني الراسخ، جيلًا بعد جيل، على الاحتفاء بشجرة الزيتون يؤكّد بطلان الأكذوبة الصهيونية الشهيرة عن أرضٍ بلا شعب لشعبٍ بلا أرض، ليُضاف إلى دلائلَ أخرى (ليس آخرَها ما اضطرّت حكومة الاحتلال إلى كشفه؛ من ألوف الوثائق التي تؤكّد الرواية الفلسطينية القائلة إنَّ مئات ألوف الفلسطينيين الذين رحلوا عن وطنهم، عام 1948، تعرَّضوا لعملية طرد، عبر «جرائم حرب» مقصودة صهيونيًا) تفنّد مزاعم التفوُّق العرقي والأخلاقي.

(كاتب فلسطيني)

لبنان والحرب الأهلية المستبعدة

حيّان جابر

يتصدّر عنوان الحرب الأهلية أجندة المراكز الإعلامية اللبنانية، بعد كل حدث اجتماعي أو سياسي ذي طبيعة تنافسية أو صدامية، كما حدث قبل بضعة أيام بعد الأحداث المأساوية التي أسفرت عن مقتل مدنيين لبنانيين. كما تخوّف بعضهم من عودة أجواء الحرب الأهلية بعد اندلاع انتفاضة 17 تشرين (2019) السلمية والمدنية، على الرغم من طابعها المعارض لمجمل المنظومة الطائفية المسيطرة على الدولة والمجتمع، أي لم تكن الانتفاضة ذات اصطفاف طائفي مع هذا الفريق أو ذاك، كما لم تملك أدوات العنف الضرورية لأي حرب أهلية، كي تتحوّل إلى طرفٍ من أطراف الحرب الأهلية. في كل الأحوال، يمكن فهم المخاوف اللبنانية من استعادة أحداث الحرب الطائفية، بعد كل متغير سياسي أو اجتماعي، إيجابيا كان أم سلبيا، نظراً إلى هول تجربة الحرب الطائفية، وبسبب ترهل الدولة وتوغل الطائفية في مؤسساتها ودوائرها، وبحكم تعدّد القوى الطائفية المسلحة، ومجاهرتها بإمكانية استخدامها السلاح في حل النزاعات الداخلية، ونظراً إلى الفوضى والتوترات الإقليمية. وبسبب أهداف الانتفاضة الوطنية والإنسانية والتقدّمية التي تهدّد سيطرة مجمل المنظومة الطائفية، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

لكن، وبغض النظر عن ماهية الأحداث التي تستدعي مخاوف تجدّد الحرب الأهلية، لا بد من التدقيق في الظرف اللبناني والإقليمي والدولي، كي نحاول مقاربة الواقع، وفهم انعكاساتها وتحديد إمكانات عودة الحرب الأهلية من عدمها في قادم الأسابيع والأشهر. فعلى الصعيد الداخلي اللبناني، نلحظ اضمحلال مؤسسات الدولة السيادية والخدمية، في مقابل تضخّم دولة حزب الله، حتى بات بعضهم يعتبر الحزب بمثابة دولةٍ داخل الدولة اللبنانية، في حين اعتقد أننا أمام ابتلاع الحزب الدولة اللبنانية، فالحزب هو السلطة المسيطرة أمنيا وميدانيا واقتصاديا وسياسيا، بل وحتى خدميا. ولنا بالكيفية التي استقدم بها الحزب صهاريج المشتقّات النفطية من إيران عبر سورية، وكيف أمّن الحزب مولّدا كهربائيا من أجل انعقاد جلسة مجلس النواب. وعليه، ليس هناك أي مجال للمقارنة بين قدرات حزب الله وإمكاناته ونفوذه من ناحية وأي من مكونات المنظومة الطائفية الأخرى، فالفرق شاسع والتنافس منعدم حاليا، الأمر الذي يقلّل من احتمالات الحرب الأهلية التي تتطلب قوتين طائفيتين متقاربتين في الإمكانات، بالحد الأدنى.

ونجد على المستوى الإقليمي تراجعا واضحا في الدور السعودي في كل من العراق وسورية وليبيا ولبنان، ونسبيا في البحرين واليمن؛ مقابل تقدّم إماراتي نسبي في الأخيرتين؛ حيث يعتقد بعضهم أن السعودية هي القوة الإقليمية المهيأة والقادرة على مواجهة النفوذ الإيراني في المنطقة، فهي تملك مفتاح تصعيد الأوضاع، عبر دعم طرف طائفي في مواجهة حزب الله، غير أن الواقع الإقليمي واضحٌ تجاه سعي السعودية نحو مصالحة أو هدنة إقليمية مع إيران، حتى في اليمن، المنطقة الأخطر على أمن السعودية الداخلي، فضلا عن انسحابها شبه الكامل من الساحتين، العراقية والسورية، ما جاء في وقت سابق لمصلحة إيران تحديدا. في حين لا تبدو القوى الإقليمية الأخرى مهيأة اليوم كي تتصدّى للنفوذ الإيراني في لبنان، أو في مجمل المنطقة، ربما باستثناء تركيا التي تملك قدراتٍ وخبراتٍ وقوةٍ ناعمةٍ قد تمكّنها من لعب هذا الدور نظرياً، في حين نجد أن الظروف التركية الواقعية، من حيث تصاعد الفوضى الإقليمية والدولية وتشابك مصالح تركيا مع إيران وروسيا وأميركا والاتحاد الأوروبي، ومن حيث أولويات المصلحة التركية في المنطقة، تجعل من بوادر التدخل التركي العسكري في الساحة اللبنانية أمرا مستبعدا في المرحلتين، الراهنة والقريبة، من دون استبعاد احتمال تدخلها سياسيا وإعلاميا. وبالتالي، لا يوجد طرف إقليمي وازن، له مصلحة في إثارة حرب أهلية لبنانية طاحنة في الأمدين، القريب والمتوسط.

> الظرف والوضع اللبناني والإقليمي والدولي غير مهيأ لدعم حرب أهلية لبنانية أو إشعالها

وأخيرا، لا يمثل لبنان ساحة صراع دولي بين القوتين الأكثر بروزاً اليوم، أميركا والصين، كما لا يبدو النفوذ الإيراني في لبنان مقلقا للمخططات الأميركية في المنطقة والعالم، بل على العكس تظهر المؤشرات الإقليمية والدولية أننا مقبلون على مرحلةٍ سوف تشهد تنظيم الدور الإيراني إقليميا، بما يتوافق مع المصالح الأميركية، الدولية والإقليمية، كما يوحي لنا التقارب الإيراني مع كل من السعودية وقطر وتركيا، وعودة إيران المتوقعة قريبا إلى مباحثات فيينا النووية. وعليه، ينحو الوضع الدولي نحو تخفيض التوترات الإقليمية وفق رغبة أميركية مباشرة، أو نتيجة تخوّفات القوى الإقليمية من تبعات تراجع الدور الأميركي إقليميا، ومن تبعات الصراع الأميركي - الصيني على المنطقة أيضا، الأمر الذي يقلّل من احتمالات الحرب الأهلية اللبنانية من زاويةٍ دوليةٍ أيضا.

من ذلك كله، نجد أن الظرف والوضع اللبناني والإقليمي والدولي غير مهيأ لدعم حرب أهلية لبنانية أو إشعالها، في المديين، القريب والمتوسط، بل تبدو مسألة سيطرة حزب الله على لبنان محسومةً لمصلحته في مجمل حسابات النظام العالمي والإقليمي، وبالتالي في حسابات القوى الطائفية اللبنانية التي تتجنّب، وسوف تتجنّب، مواجهة الحزب في ظل هذه الظروف.

(كاتب فلسطيني)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري**
■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية 33 west end
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads